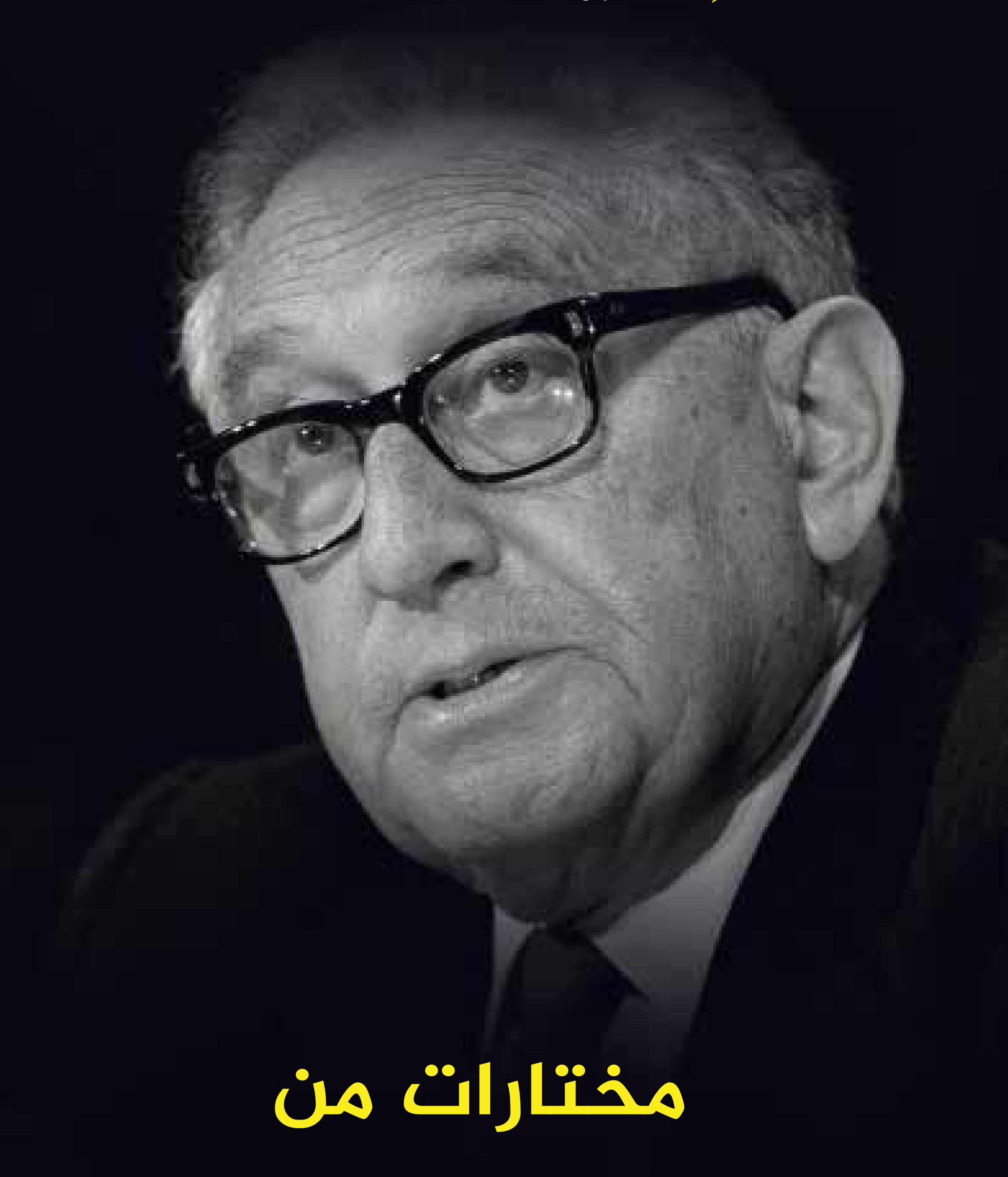
كتاب مجلة " كلمة حق " (٢٢)
هدية العدد (٣٣) من مجلة " كلمة حق " أبريل - ٢٠٢٠



مختارات من

(مذكرات هنري كيسنجر)

(الجزء الثاني)

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدراً ضئيلاً، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن يكون لك حساب على موقع تواصل اجتماعي فيكون قد صار لك منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيتها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في "مجلة كلمة حق" بفكرة أن نقدم مع كل عدد كتاباً كهدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصاً لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسب ما نقدِّر أهمية الاطلاع عليه.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود..

نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم

مجلة
كلمة حق

الفصل الرابع

عام أوروبا

في أوائل عام **١٩٧٣** بات واضحًا للعيان أن العلاقات الأطلسية، كانت بحاجة لإعادة النظر فيها مرة أخرى، بسبب حدوث العديد من التغيرات التنظيمية الهيكلية والسياسية، ففي الأول من شهر كانون الثاني من عام **١٩٧٣** قُبل ثلاثة أعضاء جدد في المجتمع الاقتصادي الأوروبي (بريطانيا العظمى، أيرلندا، الدنمارك) منضمين إلى البلدان الستة التي أسسته عام **١٩٥٨** وهي (فرنسا، ألمانيا الغربية، إيطاليا، بلجيكا، هولندا، لكسمبورج).

وأوروبا الجديدة المشكلة من تسعة بلدان أصبحت قابلة منذ الآن وصاعدًا لتوحيد سياستها واقتصادها أيضًا.

إن هذا التوسيع وهذا الدعم للوحدة الأوروبية كانا مؤشرين حقيقيين لنهاية محتومة للتفوق الأمريكي في شؤون الغرب الذي كان سائدًا منذ **١٩٤٥**.

وخارجًا عن القوتين الأعظم فإن قوة أوروبا الاقتصادية والعسكرية أصبحت منذ الآن وصاعدًا أكثر قوة، بصورة تفوق فيها أية قوة في العالم.

ومع الوحدة كان عليها إثبات هويتها الخاصة، ومن جهتنا بعد أن تحررنا نفسيًّا من الصدمة الفيتنامية فلم يبق لنا والحالة هذه سوى التوجه نحو أوروبا؛ لنحيي وإياها أهدافنا، وبعد كل ما حدث فإن لنا أشياء مشتركة مع هذ القسم من العالم الحر، سواء تاريخيًّا أو ثقافيًّا، أو قيمًا أخلاقية.

كان شارل دي غول -الرئيس الفرنسي- الأول في معارضة الموقف الأمريكي، والذي يقوم على رغبتنا في رؤية أوروبا موحدة، وحنيننا إلى الماضي من حيث

تثبيت دهاء السياسة الأمريكية. وبكل تأكيد فإن دي غول عبر عن رؤيته هذه بطريقة جارحة جدًّا بالنسبة لنا، فكان يطالب ليس فقط بحرية أوروبا في البحث عن مصالحها الخاصة، بل -أيضًا- أن تكون هذه المصالح مختلفة على الأرجح عن مصالحنا، وفعلاً فإن هوية أوروبا تتوقف تمامًا على هذا الاقتراح.

أما بومبيدو -الرئيس الفرنسي التالي بعد دي غول- فقد بين الموقف الأوروبي بدقة أكثر، وكان أكثر انفتاحًا ورحب بالتوحيد الأوروبي أكثر من دي غول، ولم يصر مثله على واقع أوروبا في كونها لا تستطيع أن تكون سوى تجمع ضعيف لدول قومية، لكنه في الوقت ذاته لم يكن أقل صلابة في مطلبه بأن تقوم أوروبا بدور خاص وفعال في الشؤون الدولية.

وفي التاسع عشر من شهر تشرين الأول **١٩٧٢** حدد بومبيدو موقفه من الولايات المتحدة، جامعًا بين التعاون والتحدي، وجرى ذلك عندما افتتح مؤتمر القمة التاريخي، الذي قرر فيه المجتمع الأوروبي السير في طريق الوحدة السياسية الكاملة.

إن إدارة نيكسون تقبل وبدون تردد الفكرة القائلة: إن أوروبا حرة في اتباع سياستها الخاصة، وكنا متفقين مع بومبيدو على أن تكون مصالحنا ومصالحهم متوازية في جميع المجالات الرئيسية.

لا تستطيع كل من أوروبا وأمريكا الاكتفاء بتصحيح طرق اتخاذ القرارات ضمن الحلف، بل عليهما أن تجابها مجتمعتين مخاطر أساسية، تعكس تغييرات مبدئية في الظروف العالمية منذ الأربعينيات، تلك الفترة التي شُكل فيها الحلف. وهنا أخذت مسألة مهمة أساسية بطرح نفسها وهي: الدفاع عن أوروبا.

في نهاية الأربعينيات وخلال الخمسينيات كانت الولايات المتحدة تتمتع بتفوق نووي ساحق على الاتحاد السوفيتي، وبالنتيجة فقد أصبح الدفاع عن

أوروبا مرتكزًا وبصورة رئيسية على رد انتقامي نووي أمريكي.

إن التفوق النووي الأمريكي الذي ترتكز عليه هذه الاستراتيجية أخذ يتفتت في أواخر الخمسينيات عندما كشف الاتحاد السوفيتي عن قذائفه الباليستية، ثم طوروا من أنفسهم، وبدل الاكتفاء بالتكافؤ معنا، أكملوا جهودهم فجهزوا عددًا كبيرًا من الصورايخ فاق ما لدينا.

ولذلك ففي عام **١٩٧٣** فإن استراتيجية حلف شمال الأطلسي المرتكزة على التفوق النووي الأمريكي، غدت بحاجة ماسة لإعادة النظر فيها.

وكانت أورروبا غير راغبة في مجابهة تغييرات الواقع العالمي، وأكمل عدد من حلفائنا اعتبار تنميتهم العسكرية وكأنها وفاء رمزي لصيانة الدفاع عن أوروبا من قبل الولايات المتحدة، وكانوا بعيدين جدًّا عن اختيار بديل حقيقي لدفاعهم المحلي. وهم يخشون تخريب أراضيهم ويأبون التخلي عن اللجوء إلى حماية درعنا النووي.

فيما كانت فوضى بعد الحرب تلف أوروبا بكاملها، كان جان مونيه رئيس المجتمع الأوروبي قد فهم أن الدولة الأم الأوروبية التقليدية قد اندثرت بعد الحرب، وللنهوض من كوارث الحرب وويلاتها فإن القارة بحاجة إلى فكر أريب يقودها إلى الوحدة الأوروبية.

وإسهام مونيه في الوحدة الأوروبية يمكن إيجازه في اقتراحين ظاهرين للعيان:

١- أن الدول الأوروبية المختلفة المتسترة وراء سيادة غير متماسكة، لا تستطيع دون تحريض أن تثب إلى مستقبل تفرضه مبادئ الوحدة الأوروبية.

٢- أن الولايات المتحدة قادرة على حثهم، لكنها تخشى في الوقت ذاته

أن أوروبا عندما تتوحد، ستنقلب ضد أمريكا.

إذا قارنا مونيه بدي غول نلاحظ أن منطقه لم يكن يختلف عنه كثيرًا، كان مونيه يعتقد كدي غول أنه يجب على أوروبا أن تكون قوية لتصبح ذات نفوذ، ولا يعني التعاون شيئًا إذا لم تكن هناك قدرة عمل مستقلة، وكان مونيه يعاكس دي غول في أن أوروبا الموحدة ستتعاون معنا أكثر من أن تنافسنا. وهنا تكمن فقرة دقيقة جدًّا لأن لا مونيه ولا دي غول يقدران على ضمان الطريقة التي ستستخدم بها أوروبا القوة الناتجة عن توحيدها.

الفصل الخامس

مبادرة في الشرق الأوسط

لم تكن دول الشرق الأوسط تبدي اهتمامًا حقيقيًّا بما يحدث لدينا في أمورنا الداخلية في تلك الفترة -حرب فيتنام، فضيحة واترغيت- لكنها كانت على قناعة بأهمية أن تبقى أمريكا متمتعة بنفوذها وقدرتها؛ لتتمكن هي من تجاوز العقبات التي تمر بها.

وكان كل على طريقته يقدِّر أن الوصول إلى حلول لقضايا المنطقة يتوقف على سياسة أمريكية قوية. فدوام بقاء إسرائيل متوقف على مساندة الولايات المتحدة، أما العرب المعتدلون فكانوا يأملون أن تستخدم أمريكا نفوذها على إسرائيل في سبيل الوصول إلى صلح مشرف. كما أن العرب المتشددين يتذرعون بحاجتهم إلينا، ويستغربون كيف أننا على الرغم من كل اقتدارنا، لم نستطع وضع حد لفضيحة واترغيت.

كان الملك حسين يحكم إحدى تلك الدول التي حدودها الاصطلاحية تعكس بصورة جزئية حصيلة التاريخ، بل الضرورات الجغرافية، أكثر من عرضها لمناطق النفوذ التي أقامتها فرنسا وبريطانيا العظمى في نهاية الحرب العالمية الأولى.

إن عاهلين اثنين فقط عرفهما الأردن وهما: حسين وجده عبد الله، اللذين بفضل حكمتهما توصلا إلى انتزاع الاستقلال والاعتبار على الرغم من استخفاف القوميين العرب المبدئي ومن بين أنياب التسلط الإمبريالي.

إن خلق دولة إسرائيل جلب عاملاً جديدًا من عدم الاستقرار، لا سيما

بالنسبة للأردن، ولما كانت هذه الدولة اليهودية الجديدة لا تقلقهم أسوة بأخوتهم العرب، فقد أدى بهم إلى التأكد من عدم قدرتهم على تقويض هذه الدولة الجديدة، وكانوا أول من أخذ في دراسة إمكانية التعايش معها، وكلفت هذه الجهود الملك عبد الله حياته واغتيل عام **١٩٥١**.

وخلال الأعوام الخمسة عشر التالية رفض حسين الاعتراف بإسرائيل وهكذا انضم إلى صفوف الزعماء العرب الآخرين، وكانت فكرة تدور في ذهنه وتقلقه بأن القوات المصرية والسورية والعراقية غايتها تقويض عرشه، مثله في ذلك مثل تدمير إسرائيل. وربما أن هذه القوات تعتقد أن تقويض عرشه هو المرحلة الأولى نحو هدفها الأساسي وهو القضاء على إسرائيل، وباتخاذ الملك حسين الغرب سندًا له، فقد صان استقلال بلاده بعناية قصوى.

فحين ظهرت موجة التطرف إثر الثورة العراقية وهددت بابتلاع الشرق الأوسط عام **١٩٥٨** نزلت القوات الأمريكية على السواحل اللبنانية، وتغلغلت القوات البريطانية في الأراضي الأردنية لمدة بضع أسابيع.

وبعد ما يقرب من عشر سنوات ألقى الأردن بنفسه في حرب الأيام الستة، وعلى الرغم مما يكنه عبد الناصر من ازدراء عظيم للمملكة، انطلق حسين من مبدأ التضامن العربي، وانضم إلى حرب كان عبد الناصر قد خسرها. ونتيجة لذلك أجبر الأردن على التخلي عن الضفة الغربية والقدس القديمة، ولم يعد عليه انضمامه إلى مشروع المصالحة سوى تعقيد كيانه حديث العهد؛ لأن حسين الذي كان مشدودًا إلى تطلعات إخوته العرب، وواقعه الخاص به، تعرض لعدة محاولات متشددة تهدف إلى وضع حد لحياته.

كانت تؤلمه مفـارقة أن لا مجال للشك فـي أنه الزعيم العربي الأكثر استعدادًا لعقد صلح، لكن الأراضي الأردنية بين جميع الأراضي العربية التي

اغتصبتها إسرائيل، هي الوحيدة التي لا تفكر إسرائيل بالتخلي عنها؛ لارتباطها الوثيق بتقاليدها.

إن رباطة الجأش التي كان يبديها حسين تجاه المكائد التي تحاك ضده كانت تظهره شخصية عظيمة، كان حسين مهددًا من قبل عدوته إسرائيل، ومن مضايقة الغرب له، وما تعطيه مصر من شد أزر لقيام ثورة ضده في سورية والعراق، ومع ذلك أثبت أنه سيد الموقف. لم يوجه حسين لومًا لأمريكا إثر هزيمة **١٩٦٧** ولم يقطع علاقاته الدبلوماسية معنا، كما فعلت العديد من الدول العربية، لكنه ثابر على وضع حلول عادلة للقضية العربية، وقضية هؤلاء الذين كانوا يسعون لإسقاطه.

أكـد حسين على استعداد الأردن للدخـول في مفاوضات مباشرة مع إسرائيل حول الضفة الغربية. وسيكون هناك بعض التعديلات في الحدود، شريطة إعادة قطاع غزة لقاء ذلك. وإذا أعيدت السيادة الأردنية عليه سيكون هناك مراكز أمامية إسرائيلية على طول نهر الأردن، بل مستعمرات يهودية، شريطة استخدامها بمثابة أرض معزولة على طول حدود الأراضي الأردنية، ولم يكن حسين ليقبل أن يضم وادي نهر الأردن إلى إسرائيل، وأظهر الملك ما لحق بنفسه من مرارة في أن اقتراحاته هذه سلمت مباشرة لإسرائيل، التي رفضتها بدورها.

الفصل الحادي عشر

استيقاظ مزعج على طبول الحرب

تم تعييني كوزير للخارجية في شهر آب عام **١٩٧٣** في الولاية الثانية للرئيس نيكسون.

استيقظت صباح يوم السبت السادس من تشرين الأول لعام **١٩٧٣** على صراخ معاوني وهو يقول: إن إسرائيل ودولتين عربيتين (مصر وسوريا) على أهبة الدخول في حرب.

عندما أيقظني معاوني لم يكن باقيًا لما كان يدعى بالسلام في الشرق الأوسط سوى تسعين دقيقة. لقد استطاعت كل من مصر وسوريا وبمهارة غريبة إخفاء استعدادتهما الحربية.

اتصلت بسفير الاتحاد السوفيتي أناتولي دوبرينين وأعلمته بالموقف فبدا عليه الذهول (أو تظاهر بذلك) فرجوته أن يعلم حالاً موسكو ومثلها القاهرة ودمشق أن إسرائيل أبلغت عدم نيتها القيام بأي هجوم.

أرسلت برقية عاجلة إلى كل من ملك الأردن وملك المملكة العربية السعودية، راجيًا إياهما استخدام نفوذهما في سبيل وضع حد للأحداث الحربية، وكان أملي ضعيفًا بتدخلهما؛ لأن الهجوم إذا كان متفقًا عليه فلن تقبل أية دولة عربية وضع حد له.

وأجوبتهما التي وصلت متأخرة مساء، أثبتت صدق حدسي ووقوفهما

على الحياد، وأعرب حسين عن قلقه إزاء هذه الأحداث، وبين فيصل أنه مع التضامن العربي، وبقي الاثنان خارج النزاع العسكري.

خلال هذه الأوقات كنت أفكر إذا ما كنا في بداية حرب في الشرق الأوسط (وهذا ما زلنا نشكك فيه) فإن أمامنا أمرين يجدر بنا تدبرهما: **ماذا علينا أن نعمل؟ وماذا يجب أن نقول؟**

وككل الناس كنت أنتظر نصرًا إسرائيليًّا سريعًا، لكن التاريخ علمنا أن كل حرب في الشرق الأوسط تعود فتصبح أزمة عالمية بين وقت وآخر، هذا وإن حرمان العرب من حقوقهم سيحمل السوفييت على الوقوف موقف التهديد، ولا شك -أيضًا- أن أوروبا ستبتعد عما ندبره في هذا الوقت بالذات؛ إذ إنها لم توافقنا قط على مساعدتنا إسرائيل.

اندلعت الحــرب في الشرق الأوســط وأصبحنا فـي مواجهة عدد من المسؤوليات، تبدو لأول وهلة وكأنها متناقضة، فعلينا تأمين بقاء إسرائيل والمحافظة على أمنها، وعلينا في الوقت ذاته الحفاظ على علاقاتنا مع الدول العربية المعتدلة كالأردن والسعودية. إننا نعلم مسبقًا أن أوروبا واليابان ستكونان قلقتين فيما لو طال أمد الأزمة، وأنهما سوف تتبعان مسلكًا يختلف عما نسلك في حال فشلنا، أما بالنسبة للسوفيت فهم يتصرفون بحكمة ومهارة، وعلينا أن نتوقع منهم مد يد العون لنا لإنقاذنا من ورطاتنا، وربما كان العكس فهم سيلجئون إلى تصعيدها.

لم أكن قد توصلت بعد إلى قناعة عما إذا كان الروس على اطلاع بالأمر مسبقًا، وبعدما يقرب من تسعين دقيقة على إطلاعنا على بدء القتال، وفي حين كنا نتوقع انتصار إسرائيليًّا سريعًا، أرسلت مذكرة إلى نيكسون لإعلامه بالموقف، وقلت فيها: إن أسوأ الأمور هي اتخاذ موقف الحياد، طالما أن المعارك

قد دارت ما لم يكن السوفييت قد عزموا -أيضًا- على اتخاذ جانب الحياد مثلنا، وفي حال انخراط السوفيت كليًّا في المعسكر الثاني يثبت لنا التواطؤ، ويصبح الوضع أمامنا كما في أيلول **١٩٧٠**، فيجدر بنا التمسك بموقفنا والبقاء أقوياء.

أطلعت دوبرينين على موقفنا في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح السادس من تشرين الأول، ولفت انتباهه إلى أن على السوفيت تحمل مسؤولياتهم، وإلا لن يكون لدينا خيار آخر، وسنترك الطبيعة تعمل ما يحلو لها، وكنت أعني بذلك أننا سننتظر فقط غلبة إسرائيل.

كان علينا كسب الوقت، ومع تقديرنا إلى أن المستقبل إلى جانبنا فإن الخيارات الأمريكية متعددة، ولكن بعد أن تكون إسرائيل قد أتمت تعبئتها وهذا أمر يتطلب يومين.

في آخر هذا اليوم العاصف السادس من شهر تشرين الثاني دعوت إلى اجتماع فريق العمل الخاص برئاستي، كانت التقارير التي بحوزتنا كلها تشير إلى أن الإسرائيليين قد احتووا الهجوم على هضبة الجولان، ويستعدون للقيام بهجوم ثان واسع المدى في اليوم التالي، لكن المصريين كانوا يقيمون مواقع لهم في الشرق من قناة السويس، ويستعدون لاختراقها ثانية من نقاط عبور عدة كانوا قد أعدوها لهذا الغرض، وتتجه الأنظار إلى أن إسرائيل ستقبض على زمام الموقف بعد يومين أو ثلاثة، ولذلك فإن اهتماماتنا جميعًا كانت متركزة حول الصعوبات التي ستخلقها لنا الحرب بالنسبة لعلاقاتنا مع البلدان العربية وعلى المدى الطويل، ونتيجة لتبادل الآراء توصلنا إلى تقريب الأسطول السادس من مواقع القتال، ولا بد من التنويه أن وحدات الأسطول السوفيتي بعد مغادرتها الموانئ المصرية في الخامس من شهر تشرين الأول، أخذت تتجه مجددًا نحو الغرب، وهكذا أظهرت موسكو أنها راغبة في البقاء على الحياد، مع الاحتفاظ بالوسائل التي تسمح لها بالعمل عند الحاجة.

تواصلت للمرة الثانية خلال هذا اليوم مع محمد الزيات وزير مصر للشؤون الخارجية فلم يستوعب مبدئيًّا ما كنت أهدف إليه من حيث إعادة الوضع إلى سابق عهده، ولم يتقبل كلامي عندما بينت له أن إسرائيل ستتقدم قريبًا، وعلى مصر في هذه الحال مساعدتنا في ما نحن بصدده، واعتبر حديثي غريبًا جدًّا، ثم تحمس فوصفه بالجنون والحمق، وكان اعتقاد الزيات دون حذلقة أو تفاخر أن مشكلة الشرق الأوسط لن تحل إلا بالوسائل العسكرية، وعلى حد قوله: إن أهداف مصر لا تحددها إلا مصر، وهدفها أن تظهر لإسرائيل أن خطها الدفاعي الذي أقامته على طول قناة السويس لا يشكل أي ضمان حقيقي لها، وأن أمنها وضمانه تجاه بلد كمصر، لا يمكن أن ينشأ ويحافظ عليه إلا من خلال الاحترام المتبادل.

فهمت أن الموضوع قد استكمل أبعاده، ويجب العمل من الآن فصاعدًا في سبيل السلام.

الفصل الثاني عشر

يوميات الحرب

الأحد / 7 تشرين الأول 3791

ثبت الجيش المصري أقدامه في خط متواصل، يقارب سبعة كيلو مترات ونصفًا في شرق قناة السويس، أما سورية فقد تجاوزت هضبة الجولان، وكانت القوات الإسرائيلية لا تزال في حالة دفاع، وتعمل جاهدة لكسب الوقت، بانتظار الانتهاء من التعبئة، غير أن إسرائيل اعترفت مساء هذا اليوم بفقدان **٣٥** طائرة مطورة. عديدون في واشنطن ارتابوا في تقدير هذا العدد واعتبروه سابقة لطلب إسرائيل التجهيز بالسلاح، لكن هذا العدد كان في الواقع دقيقًا وصحيحًا، ويوضح دقة تأثير الصواريخ الروسية أرض جو التي يملكها العرب، وخصوصًا في الجبهة المصرية. ولم يكن لدينا أي دليل بعد يمكننا من تقدير انتصار سريع لإسرائيل، ولا نستطيع تأكيد قيام إسرائيل بهجوم مضاد قبل اليوم التالي.

أرسلت غولدا مائير مذكرة تشرح الموقف، وتطلب تأجيل انعقاد مجلس الأمن الدولي حتي يوم الأربعاء أو الخميس (العاشر والحادي عشر من تشرين الأول)؛ لأن إسرائيل حسب تقديرها تكون في وضع أفضل وأقوى، كما طالبت بإمدادها ببعض العتاد العسكري وأرسلت طائرة بوينغ لنيويورك لنقل العتاد.

كان ردي على المذكرة أننا سنقوم وبكل تأكيد بإقرار العتاد العسكري، ولكن ضمن حدود معقولة، وفي حال اشتراك السوفيت مع العرب سنجتهد في تقديم كل ما يلزم.

كـان رأيي أنه إذا انتصـر العرب فسيظهرون عـنـادًا، ولن يقبلوا بأي

مفاوضات، ووافقتني الإدارة على ذلك وقالوا بأنهم سيرسلون العتاد سريعًا خلال يومين أو ثلاثة. وهكذا اتفقنا على مبدأ المساعدة، ضمن الحدود التي تقررها وزارة الدفاع.

تلقينا في خلال ذلك تقارير متناقضة حول موقف السادات، ويقال: إنه صرح لسفير إحدى دول أوروبا الغربية عدم موافقته على انعقاد مجلس الأمن الدولي، ولا يقبل بوقف إطلاق النار قبل أن تستعيد القوات المصرية جميع الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام **١٩٦٧**.

وإذا كان ذلك صحيحًا فإن كل مبادرة لوقف إطلاق النار آيلة للفشل، لكن الخبر كان يتناقض مع وضع الجيش المصري، الذي لم يتقدم عن الخط الذي كان قد وصله على بضعة كيلو مترات من حافة القناة.

قررنا إرسال شحنة محـــدودة العدد من العتاد العسكري لإسرائيل، ومن ضمنها صواريخ سيدوندر، وشحنها من قاعدة بحرية منعزلة في فرجينيا، على طائرات العال التجارية، دون وضع علامات مميزة.

كما أني أرى أنه لا يجوز أن ينتصر العرب بفضل التسلح السوفيتي؛ لأنهم سيتخذون موقفًا لا يلين.

وصلتنا مذكرة كـــنا ننتظرها من الاتحاد السوفيتـــي (الرئيس بريجنيف)، وكانت شديدة اللهجة، وهذا كان يعني إما أن تكون موسكو قد غلبت على أمرها ولا تدري ما تفعل، أو أنها ترتكز على اعتبارات تختلف عما لدينا، كانت المذكرة تحترس من إبداء أية إشارة لاتخاذ موقف موحد لدى مجلس الأمن، ولا تأتي على ذكر طريقة ما لوضع الحرب، لكنها تبحث في ما يراه بريجنيف موافقًا بالنسبة للشرق الأوسط، من مبادرات دبلوماسية سوفيتية وأمريكية موحدة للتمكن من فرض سلام في الشرق الأوسط، ضمن الشروط التي يحددها

العرب، وعلى أساس انسحاب إسرائيلي شامل، ومن المهم أن تعلن إسرائيل خلال ذلك عن رغبتها في الانسحاب من جميع الأراضي العربية.

كان يعتقد بريجنيف أن هذا يؤدي إلى تقصير أمد الحرب، لكنه تغاضى عما سيقوم به العرب تحت شعار تبادل إجراءات تغري الفريق الآخر، وتكلفنا المذكرة نفسها وبطيبة نفس أن نقوم بمهمة التوسط لدى إسرائيل، مستخدمين نفوذنا للحصول منها على موافقة قبول البنود آنفة الذكر، كان السوفيت يريدون وبكل صراحة إطالة أمد الحرب بعض الوقت، وربما وهذا ممكن أن نفوذهم لدى أصدقائهم العرب لم يكن كما كنا نتوقع.

حصلنا في هذا اليوم على أول اتصال مباشر مع القاهرة، وكانت اللهجة ودية، وكانت الفحوى دليل عقل لا سياسة، فقد أبلغني حافظ إسماعيل مستشار السادات للأمن القومي، بمذكرة وصلتني عن طريق الأجهزة السرية بالشروط التي تضعها مصر في سبيل إيقاف الأعمال العسكرية.

على إسرائيل أن تنسحب من جميع الأراضي التي احتلتها، وبعد هذا الانسحاب يمكن إجراء مداولات في سبيل السلام وبحث القضايا الأخرى المعلقة.

المثير في الأمر وهو وصول المذكرة لا مضمونها، وكان السادات يدعونا للإسهام في مشروع السلام، إن لم نقل: إنه يكلفنا بذلك، في حين كنا نطالب الأمم المتحدة أن يتخلى عن تلك الأراضي التي يدعي ملكيتها والتي احتلتها جيوشه.

ولا يفوتني أن أذكر أن المذكرة تتضمن مؤشرًا يوضح أن السادات متفهم جدًّا لتلك الحدود التي يتمكن من الوصول إليها. "ليست نيتنا التعمق في أراضي الغير أو توسيع جبهة القتال" إن هذه الجملة الواردة في المذكرة لا تخلو من التنويه بأن مصر غير راغبة في متابعة العمليات العسكرية ضد إسرائيل،

بعد الأراضي التي كسبتها، أو تحميل أمريكا مسؤولية ما يحدث كما فعل عبد الناصر عام **١٩٦٧**.

وإذا تعمقنا جيدًا في ما يهدف إليه السادات من خوض هذه الحرب يتبين لنا فارق كبير جدًّا بين الإجراءات العسكرية التي اتخذها المصريون وأهدافهم السياسية، ويؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى مفاوضات سياسية.

إن مذكرة إسماعيل أعطت الدليل على إمكانية إجراء محادثات مع بلاد هاجمت حليفنا وربما لن يكتب لها النصر بسبب الأسلحة الأمريكية، ولم يمض يوم طوال مدة الحرب لم نتلق فيه مذكرة من القاهرة أو دون إرسال مذكرة لها.

وعلى الرغم من إقامتنا جسرًا جويًّا لإيصال السلاح المطلوب لإسرائيل وميل الحرب لغير صالح مصر، لم نشعر بوجود حفيظة أو ضغينة في مصر ضد أمريكا، وكان هذا حسن تصرف من قبلها حتى لا تستميلنا إلى جانب إسرائيل في الأدوار الدبلوماسية المقبلة.

كان مشروع السادات أن يقيم معنا علاقات تجعلنا نقوم بدور الوسيط، ليس فقط على أرض الوقائع، بل في معاملته على قدم المساواة في مطالبه أسوة بإسرائيل، ويمكن اعتبار هذا تفهمًا رائعًا للأمور من وريث عبد الناصر بعد مرور عشرين عامًا من العداوة.

أوجزت أمام فريق عملي استراتيجيتنا بهذه الكلمات: إن مصر غير راغبة في مجابهتنا في الأمم المتحدة، وبالنسبة للسوفييت فهم لا يريدون -أيضًا- الوقوف ضدنا، سنطالب بالعودة إلى خطوط وقف إطلاق النار السابقة. سيعارضنا العرب بحجة أننا ننتزع منهم تراثهم، لكنهم سيتوسلون بوقف إطلاق النار، سنحاول قدر الإمكان الإقلال من الاتصال بالعرب أو السوفيت، ولا بأس من تركيز بعض أسس محادثات مع إسرائيل منذ الآن تفيدنا في المفاوضات المقبلة.

وصلتني أخبار مشجعة من القدس بأن إسرائيل تنشر قواتها وبنوع مطمئن على الجبهتين، كما أنه تم تدمير تسعة من أحد عشر جسرًا ركبها المصريون على قناة السويس. ولا تزال إسرائيل بحاجة إلى ٤٨ ساعة من ظهر غد الاثنين وتكون التعبئة قد نفذت لتستطيع تنفيذ العمليات العسكرية المقررة.

كنت على ثقة من تمكني من تأجيل طلب وقف إطلاق النار بإشراف الأمم المتحدة حتى يوم الثلاثاء.

تواصلت مع الإسرائيليين وأبلغتهم أنه بإمكان إحدى طائرات العال دون وضع إشارتها المميزة، الهبوط في قاعدة فرجينيا البحرية في الليل؛ لتنقل ٨٠ صاروخًا سيدوندر مع قاذفاتها، وأن أجهزة وزارة الدفاع مسؤولة في تنفيذ عملياتنا وبسرية تامة، ولا تسمح في الوقت ذاته لأية طائرة إسرائيلية أخرى ولو بدون إشارة مميزة من الهبوط في تلك القاعدة.

الاثنين ٨ تشرين الأول ١٩٧٣

قمت بعقد اجتماع مع فريقي الخاص وأعلمتهم أن إسرائيل قامت بهجوم مضاد على الجبهتين، وقد استعادوا الجولان فعلاً، وأصبح لدينا شبه مؤكد أن إسرائيل ستحرز نصرًا حاسمًا خلال ٤٨ ساعة.

غير أني طرحت سؤالاً كان يقلقني: إذا كان كل ما أسمعه صحيحًا، فلماذا لا يرضى العرب ويطالبون بوقف إطلاق النار؟ وهل لديهم سر نجهله؟

لكني كنت أعود بعد جولة خيالي هذه إلى إجماع زملائي القائل: إن دهشة العرب من اختراقهم التحصينات الإسرائيلية في بداية الحرب، أفقدهم رشدهم، وخداعهم لأنفسهم هذا سيحول دون القتال عندما تدحرهم إسرائيل وهذا يساعد بالطبع على الانكسار.

سارعنا في تسليم بعض طائرات الفانتوم من طراز (**4f**) التي تمت الموافقة على بيعها لإسرائيل قبل وقوع الحرب، وتواصلت رحلات طائرات العال لنقل الصواريخ والعتاد.

كانت هناك نقطة تبعث على القلق، وهي أن السادات والأسد والملك فيصل، يضغطون على حسين لدخول الحرب، وهذا يعطي الدليل على سوء الوضع، أو أنهم لم يعلموا حتى الآن أنهم خاسرون، ولم نتعمق كثيرًا باستقصاء الخبر.

أجريت محادثة مع نيكسون بحثنا فيها الإجراءات الدبلوماسية الواجب علينا اتخاذها حال انتهاء النزاع، ومما قلته: إذا كانت الخواتيم حسنة، وإذا انتهى كل شيء دون ظهور أي معوقات من قبل العرب أو السوفييت، فسيكون هذا عجيبة بل نصرًا. فوافقني نيكسون على ذلك وقال: هذا صحيح، وهناك شيء يجب أن نوليه اهتمامنا أنا وأنت، ونعرف كيف نتصرف في ما نحن نهدف إليه، فعندما ينتصر الإسرائيليون على المصريين والسوريين، وهم بلا شك قادرون، يصبح تليينهم صعبًا، لذا يجب علينا أن نضع نصب عيوننا منذ الآن حلاً دبلوماسيًّا لهذه المشكلة.

ذهبنا لننام مساء اليوم الثالث للحرب، آملين أن تنتهي كسابقتها حرب الأيام الستة لعام **١٩٦٧**، لكن الحقيقة فاجأتنا كضرب السياط في منتصف الليل.

الثلاثاء والأربعاء **٩** و **١٠** تشرين الأول **١٩٧٣**

تواصل معي الإسرائيليون نحو الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحًا، كان السؤال: ما الذي نستطيع عمله في مسألة إعادة التموين؟ لقد أدهشني السؤال، ومن خلال تقديرات الإسرائيليين منذ بضع ساعات كانت المعركة آيلة لنصر شامل، فما هي المشكلة إذن؟ إن الطلبات التي تقدم

بها الإسرائيليون حتى يومنا هذا كان معظمها محددًا بأجهزة خاصة وأجهزة إلكترونية وأرسلت جميعها على عجل بالإضافة إلى إرسال صواريخ سيدوندر.

وهناك طلبات لم نستطع تلبيتها، كطائرات فانتوم جديدة غير التي في طريقها إليهم، والمشكلة أنه لم يبق لدينا طائرات نتمكن من تزويدهم بها حاليًا، وعلينا أن نوازي بينهم وبين قواتنا المقاتلة، وإذا استطعنا وضاعفنا العدد، فإن ذلك يثير حفيظة العرب، ويسمعنا صراخ جيشنا.

في الصباح التقيت بالمسؤول الإسرائيلي دينيتز ومعه الملحق العسكري الجنرال مردخاي، الذي جاء ليرسم لي لوحة حقيقية عن المعركة.

أخذوا بالحديث وبينوا أن الخسائر التي تكبدتها إسرائيل حتى هذه اللحظة كانت مرعبة وغير منتظرة، فقد فقدت **٤٩** طائرة، إن الرقم مرتفع لكنه لا يستدعي الدهشة إذا أخذنا بالاعتبار أن سوريا ومصر يملكان أعدادًا كبيرة من صواريخ أرض جو السوفيتية، وكانت صدمتي كبيرة عندما اطلعت على خسارة **٥٠٠** دبابة منها **٤٠٠** على الجبهة المصرية وحدها، ورجاني دينيتز الاحتفاظ بسرية الأرقام وعدم إطلاع أحد عليها سوى الرئيس.

وفي حـــال إفشاء هذه الأرقام فإن العرب الذين لا يزالون على الحياد لابد من انضمامهم للحرب، لإلحاق الضربة القاضية بإسرائيل.

جالت بفكري جملة من المتناقضات وقلت: "إن هذا ما يدعو المصريين إلى التفاخر"، وكيف يمكن أن يحدث ذلك؟ فشرحوا لنا أن عددًا كبيرًا من الدبابات فقدت في طريقها إلى ساحة القتال، نتيجة سرعة قيادتها، وعدم صيانتها في مستودعاتها.

فاضطربت إلى حد أني ذكرت الإسرائيليين بما كانوا يروونه لنا في الليلة

الفائتة حول الانتصار المنتظر ليوم الأربعاء، فتقبلوا قسوتي وأجابوا: إنه ربما حدث شيء لم يكن في الحسبان، ولم يستطع تحديده.

كان يجب علينا إعادة النظر بالأسس التي وضعناها بناء على استراتيجتنا؛ لأن كل إجراءاتنا الدبلوماسية، وسياستنا في إعادة تسليح إسرائيل، كانت مرتكزة على انتصار إسرائيلي سريع.

لم يخالجني الشك أبدًا أن هزيمة إسرائيل بفضل التسلح السوفيتي، ستكون كارثة جغرافية وسياسية.

بالنسبة للولايات المتحدة، ومن جراء ذلك حرصت إسرائيل على الحصول على انتصار في إحدى الجبهتين، قبل أن يتخذ دبلوماسيو الأمم المتحدة مكاسب العرب حقًّا يثبتونه في اجتماعاتهم القادمة، وأخذنا نركز جهودنا على انتزاع نصر من السوريين، أما على المصريين فهذا أمر يطول.

أعلمني دين براون سفيرنا في عمان أن القائم بالأعمال السوفيتي في عمان يضغط في هذه الآونة على الملك حسين لدخول الحرب، ويعده بمساندة دبلوماسية من قبل الاتحاد السوفيتي، وقبل أن يمضي النهار كان بريجينيف يوجه نداءً مماثلاً للرئيس الجزائري هواري بومدين.

لكن الملك حسين رفض حتى هذه الساعة دخول المعركة، ولقد رفض -أيضًا- طلب الملك فيصل بإدخال فرقة سعودية متمركزة في الأردن، فأرسلت مذكرة إلى حسين ناشدته فيها عدم خوض غمار الحرب، ووعدته ببذل جهود مستميتة في سبيل إحلال السلام، فأجاب أنه متضامن مع إخوانه العرب، ويندد بإسرائيل ورفضها السلام منذ عام **١٩٦٧**، وأنه سيمتنع عن التدخل إلى أقصى حد ممكن شريطة إعداد وقف إطلاق النار بسرعة تامة، وإلا فإنه عازم على التدخل. ومن المعلوم أن تمديد أمد الحرب يعزز موقف الاتحاد السوفيتي في العالم العربي.

كان من الواضح بالنسبة لي أنه لن يكون هناك وقف إطلاق نار إلا في حالة نجاح إسرائيل، التي عليها أن تتماسك لتتغلب على ما أخذ يظهر لديها وكأنه تفكك، ولإعادة الثقة إليها يجب أن نبرهن لها عن إعانة أمريكية ملموسة.

في اجتماعي مع معاوني قدمت ستة خيارات تتعلق بتجهيز إسرائيل بالأسلحة، وهي منسقة حسب الأهمية وتميل إلى متابعة مساندتها السرية، وإذا قضت الحاجة تسخر طائرات أمريكية لهذه الغاية، وأعلمت المجتمعين أني سأطلع الرئيس نيكسون على كافة الأحاديث التي دارت والخيارات التي قدمت.

أبلغت الإسرائيلين بقرارت نيكسون والتي كانت كالتالي:

- أقـر الرئيس إرسال كافة قطع الغيار والعـتاد، من تجهيزات وأعتدة إلكترونية، ما عدا قنابل الليزر، كما وافق على تعويض جميع ما يفقد من دبابات وطائرات.

وأخبرت الإسرائيليين أن خسائرهم ستعوض، وإذا اضطروا إلى الدبابات فستصلهم ولو على طائرات أمريكية.

عرض السوفيت قرار وقف إطلاق النار، فأخبرناهم أننا نعتبره اقتراحًا بناءً، وطلبنا إفساح مجال لدراسته، وفي الواقع لو قبلنا بوجهات نظر الاتحاد السوفيتي وضغطنا على إسرائيل لقبولها القرار، لكانت انتهت الحرب بانتصار واضح للعرب. ويصبح موقف الولايات المتحدة حول حل دبلوماسي بعد الحرب صعب التطبيق، وفي الوقت نفسه فإن النظرية التي كنا نرى أنفسنا من خلالها، أننا القوة العظمى الوحيدة القادرة على طرح حلول للقضية، فإن هذه النظرية تكون قد تبخرت.

فهمنا من خلال محادثاتنا مع مصر أن رغبتها الحقيقية في السلام

تنطلق من مصلحتها القومية، وتطالب في حال تهيئة الظروف مناقشة مشروع سلام شامل.

على الرغم مما لمسته من مرونة في الموقف المصري الجديد، كنت على ثقة بأنه لن تجري محادثات رسمية، طالما أن الموقف العسكري لم يتغير، فسارعت في الحال لإجراء ما يلزم حول عدم امتداد القتال، وعلمت أن السادات يحث الملك حسين على أن يزج بنفسه في المعركة، كما علمت بأن حسين يدرس إمكانية إرسال فرقة مصفحة إلى سوريا، متحاشيًا بذلك اتخاذ قرار أخطر مثل فتح جبهة جديدة يهاجم بها على طول شواطئ نهر الأردن، علمًا أن كل مبادرة أردنية قادرة على حمل دول عربية على دخول المعركة وإطالة أمد الخيار العسكري، فناشدت الملك حسين تأجيل اتخاذ قراره يومين على الأقل، ونوهت له في الوقت ذاته أني سأبذل قصارى جهدي في دبلوماسية سرية لوضع حد للقتال، وأنا لا زلت لحاجة لبعض الوقت لعونه، وكان حسين عاقلاً فلم يجب، لكنه اتبع توصيتي.

صبيحة العاشر من شهر تشرين الأول وصلنا خبر مفاده أن الملك فيصل اتفق مع الملك حسين على إرسال الفرقة السعودية إلى سورية.

استـدعاني وزير الدفاع شليسنجر لإبلاغي بهذا النبأ، وطالبني باتخاذ إجراءات سريعة في سبيل وقف إطلاق النار، وكان القلق والارتياب بادين على لهجته حتى إنه اندفع وتمتم ببضع كلمات حول إرسال قوات أمريكية، فرفضت هذه الفكرة في الحال وقلت له: فيما يتعلق بالسعوديين، أرجو أن يبقى كل منا محافظًا على رباطة جأشه، فلو توجهت فرقة سعودية للاشتراك في المعركة فلن تصلها قبل يومين، ومن الممكن -أيضًا- أن يرسل الأردن فرقة عسكرية للاشتراك في المعركة، وهذا ما يمكن أن يعمله الأردن على أقل تقدير، ولكن علينا المحافظة على موقفنا قرابة يوم واحد؛ إذ ربما نتوصل إلى النتيجة التي

نريد، وأعتقد أنه ليس هناك حاجة ألبتة بالإعداد لاشتراك فعلي من قبلنا.

ظهر لنا من خلال المحادثات مع الإسرائيليين أن إسرائيل لن يصلها جميع العتاد المقرر، الذي تنقله طائرات العال في رحلاتها السبع، وبعد استشارة الأعضاء الهامين في فريق العمل الخاص أُقر لجوء إسرائيل إلى استئجار وسائل نقل لباقي العتاد.

لم يؤخذ برأي لجوء إسرائيل إلى شركات خاصة لإتمام نقل باقي العتاد المخصص لها؛ لأن الدوائر العسكرية الأمريكية شكلت جسرًا جويًّا بعد ثمان وأربعين ساعة.

كان علينا مهما تكن استعداداتنا لتدبير أمر نقل العتاد، وتأجيل أي عمل دبلوماسي، إلى أن يحصل تغيير على الجبهة، وحسب تقديرنا أن أحسن وضع عسكري مؤات للتحرك الدبلوماسي، الذي نفكر به لما بعد الحرب لا يمكن البدء به، ما لم تسترجع إسرائيل جميع ما فقدت حاليًا من أراض، وتتقدم قليلاً إلى الأمام، وإذا تم ذلك، فسيظهر أن الخيار العسكري المستند إلى الأسلحة السوفيتية لم يكن إلا سرابًا، وأن كل تقدم دبلوماسي يتوقف على مساندة أمريكية. وإذا لم يحدث ذلك يجب أن تجري مفاوضات على أساس تقدم إسرائيلي في إحدى الجبهتين ولو كانت مغلوبة في إحداهما، لكن هذا سيكون أكثر تعقيدًا.

الخميس ١١ تشرين الأول ١٩٧٣

مع بزوغ فجر صباح هذا اليوم كانت عشر طائرات سوفيتية تصل سوريا، وللحقيقة فإن جسر موسكو الجوي أخذ يمتد الآن إلى مصر، وحتى إلى العراق، ثم علمنا أثناء النهار أن ثلاث فرق من الجيش الأحمر ستنقل جوًّا، وضعت في حالة التأهب.

كما أن استراتيجية إسرائيل توضحت هذا اليوم؛ لأنها قد اجتازت خطوط ما قبل الحرب على الجبهة السورية، وصرح موشيه دايان أن الجيش الإسرائيلي يتجه الآن نحو دمشق، وهذه المكاسب تعتبر بمثابة دعم لاستراتيجيتنا شريطة أن يكون الإسرائيليون صادقين في إيرادها.

على كل حال كنا أوقفنا الإجراءات السوفيتية منذ أكثر من **٢٤** ساعة بشأن وقف إطلاق النار، وهذا موقف يعسر علينا السير فيه إذا أعلنت إسرائيل أنها تتجه نحو عاصمة بلد حليف للاتحاد السوفيتي، فأوضحت الأمر للإسرائيليين قائلاً: لا يليق بكم أن تطالبوني من جهة بالإبطاء في إجراءات الأمم المتحدة ومن جهة أخرى تسمحون لدايان أن يصرح أنكم متجهون نحو دمشق.

أكملت مماطلة دوبرينين -السفير الروسي- واستنبطت هذه المرة عذرًا بوجوب أخذ رأي إسرائيل والأطراف الأخرى قبل تقديم اقتراح وقف إطلاق النار.

كنا معرضين في تلك اللحظة إلى احتجاجات الرأي العام التي تتعالى يومًا بعد يوم، ويقوم بها عضو مجلس الشيوخ هنري جاكسون، والكثير من كتاب افتتاحيات الصحف، الذين كانوا يزعمون أننا نؤجل وعن قصد إعادة تسليح إسرائيل، وأن السوفييت يستخدمون الانفراج السياسي لإلهائنا، وهذه التهمة الأخيرة تفتقر إلى الحقيقة؛ لأننا نحن الذين نماطل السوفيت لإفساح المجال لإسرائيل بترميم أوضاعها، ولأننا كنا نعمل المستحيل لتأمين إيصال العتاد لإسرائيل.

في وقت متأخر من هذا اليوم استدعاني إدوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا، وأعلمني أن هناك ضغوطًا تزداد يوميًّا وتمارس ضد الملك حسين، ليقدم على شيء تجاه إخوته العرب، ففكر حسين بإرسال فرقة مدرعة إلى سورية بنوع لا يغيظنا، ويتمنى إطلاع إسرائيل على ذلك حتى لا تقوم بمهاجمة الأردن.

ليس هنـاك مكان في العالم خـارج الشرق الأوسـط يمكنه أن يتصور أن محاربًا يطلب إذن خصمه لمهاجمته، وهذا ما سخر منه الإسرائيليون وقالوا : هذا يعني الدخول في الحرب، وكان ردهم بالنفي.

لكن إسرائيل في جوابها لا تهدد بالانتقام من الأردن، ولا بتوسيع الحرب إلى حدوده، وصدف أن تلقيت جواب إسرائيل في الوقت الذي كان فيه حسين يتصل بي لإعلامي بما سبق قائلاً: إن مهلة الـ **٤٨** ساعة التي كنت قد طلبتها قد انتهت، وعلى الأردن أن يقوم بأي عمل قليل الإثارة، فيرسل فرقة إلى سورية، وعلي الآن موازنة الأهداف العراقية السوفيتية، واحتواء الكارثة في أضيق حدودها الممكنة، فأجبته ودعوته إلى متابعة جهوده لاحتواء النزاع وتحجيم تداعياته. وعلينا أن نعمل جميعنا في سبيل وضع حد لحالة صعبة وخطيرة، وقلت له -أيضًا: إني طلبت من إسرائيل التحلي بضبط النفس، ومن المفروض أن قواته -أيضًا- تسلك طريق الحذر والتبصر.

الجمعة والسبت **١٣/١٢** تشرين الأول **١٩٧٣**

علمنا أن السوفييت طلبوا من إيران السماح لطيرانهم المتوجه نحو سوريا والعراق بالمرور فوق الأراضي الإيرانية، لكن الشاه رفض ذلك، ما لم تكن تلك الطائرات تحمل قطع غيار لمعسكر الطائرات الروسية الموجود في سوريا.

وفيما إذا احتاجت هذه الرواية إلى الصحة، فإن الشاه وقف إلى جانبنا في الوقت الذي كنا نحتاج إليه فيه، لكننا لم نرد له هذا الجميل.

أخبرني وزير الدفاع شليسنجر أنه سيقدم لإسرائيل ترسانة أسلحة يقدر ثمنها بـ**٦٠٠** مليون دولار، فمازحته قائلاً: ولا تنس إعطاء إسرائيل استحقاقات البيت الأبيض.

بعد أن تشاورت مع شليسنجر ومعاوني صممنا على اتخاذ ثلاث قرارات احتياطية: الإسراع في إرسال العتاد الذي وعدت به إسرائيل على متن ١٠ طائرات نقل، على أن ينقل هذا العتاد إلى جزر الآسور البرتغالية، حيث يسارع الإسرائيليون إيصاله إلى بلادهم بطريقتهم، فتكون المسافة قد تقلصت بهذا الحجم، وزاد حجم الحمولة، وقل استهلاك المحروقات، وتابعنا السعي للحصول على وسائل نقل مستأجرة، وإذا حدث ووجد ما يخشى من رد الفعل العربي تجاه ما نقوم به فجوابنا واحد: إن إطالة أمد الحرب هو السيف المصلت فوق رأس مصالحنا، بالإضافة إلى النجاحات التي يحرزها فريق المتشددين في المنطقة، ووافقني شليسنجر على فكرتي.

تحدثت مع إيبان (مسؤول إسرائيلي) عن إقامة الجسر الجوي، فاستغرب كيف أن العرب سيغضون أبصارهم عن طائرات نقل تستأجرها أمريكا، أو طائرات نقل عسكرية خاصة بالجيش الأمريكي.

ومثل هذه القضية تجب دراستها عند اجتماع فريق العمل الخاص.

لـدى دراسة مشكلة إقامة جسر جـــوي، برهن نيكســون ومرة أخرى عن شجاعته؛ لأن البنتاغون في الوقت ذاته سمح بثلاث رحلات جبارة لطائرات (س - ٥١) تستطيع كل منها أن تنقل من ٦٠ إلى ٨٠ طنًّا من العتاد، وبصورة مباشرة إلى إسرائيل، فوافق نيكسون وألح على تنفيذ ذلك في الحال.

كان المهم والعاجل هو تسليم إسرائيل طائرات الفانتوم (4f)، وستتلقى منها ١٠ طائرات اعتبارًا من يوم الأحد، والأربع الباقية يوم الاثنين، حينئذ بادر شليسنجر إلى إعلامنا بأن الطائرات في طريقها إلى إسرائيل.

إن حكــاية الجهود المبذولة فــي سبيل إعادة إمداد إســـرائيل بالسلاح اصطدمت بقضايا داخلية أمريكية واستراتيجية غامضة، لفها ضباب من

الاتهامات والإشاعات الكاذبة، فيجدر بي والحالة هذه أن أوجز تسلسل الأحداث بدءًا من النداء العاجل الذي وجهته إلينا جولدا مائير يوم الثلاثاء، وتلقت معه إسرائيل ضمانات بتعويض خسائرها، وانطلاقًا من هذا الضمان أخذت تبدي عدم اهتمام في ما تستهلكه من عتاد حربي، ولا يظن أحد أن ذلك غاب عن بالنا.

لقد حملتنا التقديرات الإسرائيلية على الاعتقاد أن المعركة النهائية ستنجز يوم الأربعاء، ثم طرأ تقدير آخر إسرائيلي، فاعتبرها يوم السبت، وفي هذه الأثناء كنا استطعنا المطالبة بوقف إطلاق النار، كما اقترح دوبرينين صباح الأربعاء، ولم تقل إسرائيل إلا يوم الجمعة.

أما هذه وقد تم، فلا شيء هناك يمنعنا من تدبير حاجات إسرائيل الضرورية، من خلال الطريقة التي لا تعرض للخطر مصالحنا القائمة مع الدول العربية، ولا سيما موارد البترول. إن الواجب يدعو المسؤولين عن أمن شعبنا إلى تدارس جميع الاعتبارات الحيوية أسوة بالمصلحة العامة.

وإذا كان قد صدر عني إلحاح أكثر من زملائي حول التسريع في إيصال حاجيات إسرائيل، فهو لأجعل تكافؤ بين ما نعمل من حيث مساندة إسرائيل وتقريب أجل انتهاء المعارك، مع ما يقوم به السوفييت من إقامة جسر جوي لمساندة العرب.

في الواقع إن كل ما كان يعترض إسرائيل لم يكن ناتجًا عن بطء وصول الإمدادات التي لم تتأخر حسب معرفتنا، بل كان مبعثه العجب الذي خلفته لها ذكريات انتصاراتها السابقة. لقد أسست الاستراتيجية الإسرائيلية على الهجمات الخاطفة التي قامت بها عام **١٩٦٧**.

وعرف العرب في غضون ذلك أنهم يستطيعون الثبات وتحسين مواقفهم ومواقعهم باتباع حرب استنزاف. فقد انكفأت جبهاتهم لكنها لم تدمر كما كانت

تظن إسرائيل، وأوقعوا بخصمهم خسائر جسيمة لا يستطيع بلد كإسرائيل لا يتجاوز عدد سكانها ثلاثة ملايين، تحملها برضا. ولذا فقد اضطرت إسرائيل إلى تعديل طريقتها الحربية خلال الأسبوع الثاني للحرب، ساعدها على ذلك خطأ فادح ارتكبه المصريون، وبفعل التأثير النفسي الذي حدث لدى الإسرائيليين أكثر مما هو لدى العرب، من جراء إرسال عتاد بالجملة من قبل أمريكا، تحول مجرى القتال وبصورة نهائية لصالح إسرائيل.

والحاصل أن إقامة الجسر الجوي الأمريكي جعل من تسلسل الأحداث يؤثر على المسار الدبلوماسي، ويؤدي إلى استشاطة غضب العرب، وبعد مضي يوم السبت الثالث عشر من شهر تشرين الأول، كان باستطاعتنا اتخاذ قرار تزويد الإسرائيليين بالسلاح مثابة رد حقيقي على الجسر الجوي الذي أقامه السوفييت، وكنا قادرين -أيضًا- أن نعزو ذلك إلى عدم قدرة موسكو بمتابعة مبادرتها في سبيل اتخاذ قرار لوقف إطلاق النار.

كنا ننتظر جواب البريطانيين بخصوص وقف إطلاق النار، وأوعزت إلى مساعدي أن يستعد لزيادة الإمدادات، فإذا فشلت مبادرة وقف إطلاق النار بسبب تآزر السوفييت معنا، فيحسن بنا أن نشكك في أن تآزرهم لا بد أن يهدف إلى انتصار عربي قريب. وهم على غير استعداد لدفع ثمن تسوية، وعلى أية حال فإن طريقنا لا تزال مرسومة وواضحة. وعلينا تحريض الفرقاء ذوي العلاقة أن يتبينوا صحة مواقفهم، فنحن لا نستطيع السماح بخسارة إسرائيل الحرب، وإذا ظفر بها المعسكر الروسي، فإن هذا سيؤدي بنا إلى موقف سيئ جدًّا.

في حالة فشل محاولة وقف إطلاق النار، يجب علينا تعزيز جسرنا الجوي، إلى أعلى حد من قدراتنا، مستخدمين جميع الطائرات الممكن استخدامها، دون الاهتمام لأي خطر مواجهة، ولن نعود فنجري أية محادثات إلا بعد حدوث تغير جديد في سير المعارك.

رد البريطانيون على محاولة وقف إطلاق النار بقولهم: إن السادات يرفض وقف إطلاق النار بجميع أشكاله، وإذا اتخذ قرار بهذا المعنى يخالف رغباته، وأصبح على وشك الإقرار، لعدم معارضة القوتين الأعظمين السوفيت والأمريكان، فإنه سيطلب من الصين أن تستخدم حق الفيتو ضد هذا القرار، وكان لدى سفير فرنسا الفكرة ذاتها عن موقف السادات.

لن يكون للمصالحة معنى ما لم يفرض حل متكافئ. وفي الوقت الذي كنا فيه نتهيأ لإمداد إسرائيل بالسلاح وبشكل كثيف، كنا لا ندري بالضبط ما يقابلنا به العرب من كبت وعداء، يماثل على الأقل ما نالهم من مرارة الخسران. بالإضافة إلى أن السوفيت سيتحدون ضدنا ويشكلون كتلة من البلاد المعارضة لمصالحنا في كل المنطقة. على أية حال لا نملك الخيار، وإذا ربحت الدول التي سلحها السوفيت، فستتفوق بوضع شروط التسوية التي تلي كل حرب، وإذا لم تفرض إسرائيل القرار فإنها سوف تجد نفسها تستدرج إلى حرب استنزاف، حيث لا تفيدها شجاعة أو مهارة مهما تكن، أمام الشعوب العربية التي تفوقها ثلاثين مرة بعددها وتجاربها حاليًا.

فيما كنت أخبر الإسرائيليين عن القرار الذي اتخذناه حول تعزيز الجسر الجوي ضمن أعلى حد من قدراتنا، ونقل العتاد على طائرات نقل أمريكية، كنت أحثهم في الوقت ذاته على أن تسارع إسرائيل في هجماتها العسكرية وبطريقة مربحة خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة، وحسب الوضع الذي سيعرض على مجلس الأمن. حيث لم يعد بإمكاننا تأجيل مناقشة القضية مدة أطول، كما أننا لن نجد سببًا يسوغ لنا استخدام حق النقض ضد قرار تبنيناه نحن قبل مدة قريبة تحت سمع وبصر شعوب عدة.

إن موقف السوفييت لا يزال مبهمًا، لقد خدعونا مدة طويلة، ولا تحدوهم الرغبة أبدًا باقتراح وقف لإطلاق النار، فهل يعملون في سبيل إطالة أمد الحرب؟

يزعم السادات في مذكراته، أن السوفييت كانوا يحثونه للقبول بوقف إطلاق نار مكاني، منذ اليوم الأول للحرب، ولم يبدأوا بإمداد المصريين بالسلاح إلا يوم الخميس ١١ تشرين الأول، ولم يشحنوا إليهم عتادًا وغيارات ذات أهمية، سوى صباح ١٣ تشرين الأول، أي بعد أسبوع من بدء الحرب.

إن ما حدث هو أن السوفيت كانوا يسعون في ذات الوقت للتوفيق بين جميع مواقفهم ونجاحاتهم سواء في الإبقاء على الانفراج السياسي معنا، أو في مساندة البلدان العربية الصديقة. وكانوا جد حريصين في المحافظة على مواقفهم هذه، لا سيما عندما تدور الدائرة، لكنهم لا يشددون على تحاشي خطر المواجهة مع الولايات المتحدة.

السادات أخذته نشوة النصر بما أحرزه من نجاح، وكان الأوروبيون يتزاحمون بل يتسابقون للتقرب من العرب، أما السوفيت فلم يكونوا على استعداد لممارسة ضغوطهم على السادات لقبول اقتراح وقف إطلاق النار.

في بداية الأمر رغبت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، تطبيق استراتيجيات مماثلة، فسعى كل منا بتجهيز أصحابه بما يلزم من معدات وإغداق العتاد عليهم.

على كل حال كـــنا نملك جميع مؤهلات النجاح، وكان حليفنا آخر الأمر أقوى وأكثر استعدادًا ليستفيد من إمدادنا له، غير أننا كنا مستعدين لتحمل المصاعب الطارئة أكثر من موسكو. لقد تعلمت خلال السنوات الأربع لولاية نيكسون الأولى أن أية أمة كبرى تتخذ مشروعًا، يجب أن تخطط له بحذق وتنجح فيه، ولن تنتصر أبدًا إذا ترجمت شكها الداخلي إلى تردد، ومهما يكن التناقض في حال اتخاذ قرارها، يجب عليها اتباع الطريق الذي اختطته لنفسها، وإلا فإن مصيرها الفشل بالإضافة إلى وصفها بعدم الكفاءة والمضايقات الداخلية التي

تحدث لها من جراء إقدامها على ذلك القرار.

سألني مسؤول بريطاني: ما هو موقفكم عندما يأخذ العرب بالتلويح لاستخدام البترول ضدكم؟

أجبته: التحدي، فرد علي قائلاً: لا شيء سوى التحدي، ودون تعقل، وهذا يدعو إلى تأزم الوضع، ألا تعتقد؟

فأجبته: ليس لدينا خيار آخر.

كنا قد حصلنا على إذن من البرتغال باستخدام مطار لاجس في جزر الآسور لنقل العتاد لإسرائيل، لكن فجأة تراجعت الحكومة البرتغالية وألغت ما وعدت، بحجة أنه ليس لها مصلحة بمناهضة العرب، ثم أخذت تداولنا بمدها بالعتاد الحربي لتتمكن من إكمال حروبها الاستعمارية في موزمبيق وأنغولا.

لم نكن على استعـــداد للموافقة عـــلى ذلك، فكتبت رسالة قاسية غير عادية وبتوقيع الرئيس، ووجهتها إلى رئيس وزراء البرتغال، بينت فيها رفضنا تسليم البرتغال عتادًا حربيًا، ونهدد بالتخلي عن هذه البلاد، لتواجه مصيرها المحتوم في أحضان عالم معاد، وعلى الفور سمحت لنا البرتغال بالمرور في القاعدة الجوية، والتزود بالوقود، دون شرط.

عقدت جلسة مع نيكسون تناقشنا خلالها في كل شيء، وقلت له: إن الطائرات الإسرائيلية ستدمر المصفحات المصرية حال ابتعادها عن مظلتها من صواريخ أرض جو، وإذا حدث هذا فإنه يعتبر تحطيمًا للعمود الفقري للهجوم، وإذا انتصر العرب في مثل هذه الظروف فإن انتصارهم يكون عظيمًا، ويلزمنا حينذاك شد البطون. لكن نيكسون خالفني الرأي قائلاً: لا يعقل أن القوات المسلحة الإسرائيلية تكون قد دُمرت بمثل هذه السرعة وتخسر معركة مخططًا لها.

الأحد ١٤ تشرين الأول ١٩٧٣

بدأ المصريون هجومهم الجديد فــي ذلك اليوم، والغاية منه تخفيف الضغط على السوريين. تحدثت مع نيكسون صباح اليوم، واتفقت آراؤنا على أن مثل هذه المعركة لن تطول؛ لأن إمدادت الفريقين تأتي من بعيد، ولا بد لها أن تنتهي، وأن الصحاري عادة لا تكون مسرحًا لعمليات حربية طويلة الأمد.

أرسلت مذكرة إلى السادات في القاهرة قلت فيها: إن أمريكا على استعداد لوقف إعادة تسليح إسرائيل جوًّا، حال التوصل إلى وقف إطلاق النار، وتؤكد الولايات المتحدة مجددًا أنها تعترف أن جميع الشروط التي كانت قبل الحرب الحالية غير مقبولة بالنسبة للمصريين، ونحن الأمريكان سنبذل جهودنا حال انتهاء الأعمال العدوانية، للتعاون في إقامة سلام عادل وثابت في الشرق الأوسط، ونرجو استمرار علاقاتنا بمصر، ولو بدت صعبة، على الرغم من جميع الأحداث.

كان هناك دولة أخرى تساعدنا في المطالبة بالاعتدال، وهي العربية السعودية. كان نيكسون يقدر ويحترم الملك فيصل، الذي كان ثابتًا في ميله نحو الغرب، دونما حاجة تدعو لمعرفة المبادئ السائدة في ذلك البلد، والمتجسدة في ذاك العاهل. ولم تكن لي معرفة في ذلك الوقت بالعربية السعودية، ولا الطريقة المرنة التي تتعامل بها، والتي تطورت خلال غنى فاحش، وأقدمت على نقلات نوعية بين الإقطاعية ومستقبل لم تقرر حدوده بعد.

إن المملكة العربية السعودية تحاول جاهدة تحاشي جميع المجابهات، والمحافظة على أمنها، دون التعرض لاستشارات خارجية، ويسعى زعماؤها إلى إضفاء سياسة تنطلق من تأمين مصالح الآخرين، ولهم طرقهم الخاصة في إدارة سياسة بلادهم، ويفضلون عدم تكليفهم بقضايا لا يستطيعون حلها.

اقتربت من شاه إيران، الذي كانت بلاده بمثابة مرساة شرقية لسياستنا الشرق أوسطية، وتسليحنا قواته كان يحول دون مطامع العراق باتجاه الخليج الفارسي، وتضع حدًّا لقوات هذا البلد المتشدد من استخدامها في حرب الشرق الأوسط. غير أن إيران تملك حدودًا طويلة مع الاتحاد السوفيتي، ويتوقف دور إيران في الاستراتيجية الغربية على منع توسع السوفيت، ويجعل من البلاد حاجزًا لا يمكن اختراقه إلا من خلال غزو نظامي، بالإضافة إلى مساهمته في حماية الأنظمة القائمة على طول الخليج الفارسي من جميع الانقلابات التي تتعرض لها؛ لأن ثبات أنظمة الحكم القائم فيها حيوي بالنسبة لنا.

إن الكابوس الدائم الجاثم على الخليج الفارسي منذ سقوط الشاه، يوضح بجلاء شجاعة المساهمة التي كان يقدمها للعالم الحر. بدا البرهان واضحًا خلال حرب تشرين الأول؛ لأن العراق لم يجرؤ على إرسال سوى فرقة واحدة إلى سوريا، ولم يتمكن من تهديد جيرانه الآخرين، كالأردن والعربية السعودية. وكانت إيران هي البلد الوحيد الذي استطاع رفض تحليق الطيران الروسي فوق أراضيه، وهناك قلة من حلفائنا في حلف شمال الأطلسي ما جرؤوا على مثل هذا العمل. وأسطولنا في المحيط الهندي من كان يزوده بالوقود؟ إنها إيران. وعلى الرغم من ذلك فقد بقي الشاه على صلة وثيقة بالسادات، وعندما أراد السادات القيام بخطواته الجبارة في سبيل السلام، كان الشاه إلى جانبه، يمده ماديًّا وسياسيًّا ومعنويًّا.

لكن الشاه الذي كان يتبع سياسة مماثلة لسياستنا، أراد إظهار أن مواقفه أحيانًا تهدف إلى تعزيز مساندة الأنظمة المعتدلة في المنطقة، ويرغب في استقصاء قراراتنا التي يريد تنفيذها، وانطلاقًا من هذه الأفكار والرؤى، وجهت إليه في الرابع عشر من شهر تشرين مذكرة توضح فيه الفرق بين حليف ودمية.

وطلبت منه أن يتفهم أن انتصارًا عربيًّا في النزاع القائم حاليًا، يحقق

بفضل التسلح السوفيتي، بالإضافة إلى النصر الذي أحرز سابقًا بواسطة الأسلحة السوفيتية في النزاع الذي كان قائمًا بين الهند والباكستان عام **١٩٧١** يدفع بالعالم نحو التطرف، لا سيما الأنظمة السياسية في المنطقة، وربما جر العالم بأجمعه إلى ذلك التطرف.

جاء صباح الاثنين الخامس عشر من تشرين الأول ليثبت بجلاء صواب رأينا، فقد فشل الهجوم المصري في سيناء، علمًا أنه اجتمع في أرض المعركة نحو ألفي دبابة، اشتركت في أعظم معركة دبابات في التاريخ، وبعد أن اجتازت سياج مظلتها الواقية من الصواريخ المضادة للطيران أصبحت الدبابات المصرية عرضة لضربات الطيران الإسرائيلي. وأن قرابة **٢٥٠** دبابة قد دمرت، من قبل توحيد هجوم الدبابات والمدرعات والأسلحة المعادية للدبابات والطيران الإسرائيلي. وجاء هذا مناقضًا تمامًا لما حدث للإسرائيليين في الأسبوع الماضي. وأن الدبابة لا بد وأن تخسر تفوقها على ساحة القتال، إذا لم تكن هناك مدفعية تساندها، مع أسلحة مضادة للطيران.

ومن الآن وصاعدًا يستطيع الإسرائيليون التقدم بقواتهم نحو الجبهة الجنوبية.

الاثنين والثلاثاء **١٦/١٥** تشرين الأول **١٩٧٣**

كان جسرنا الجوي يقوم بعمل مذهل للغاية، كنا نسلم **٢٠** شحنة يوميًّا بمعدل ألف طن من العتاد.

وصلتني مذكرة من حافظ إسماعيل وبلهجة غريبة في مثل هذه الأوضاع، فكان يجدد تأكيده تصميم مصر على متابعة سلسلة الاتصالات حفاظًا منها على حسن العلاقات، وأكد -أيضًا- عدم السماح لأي فريق آخر غير مصر أن يتكلم باسمها، وبمقولة أخرى: على الولايات المتحدة ألا تعير انتباهها لتفسيرات

موسكو، إذا كانت لا تتوافق مع ما تعلمنا به القاهرة مباشرة.

وينكر إسماعيل تصميم مصر على إذلال إسرائيل؛ لأن الذل صعب المذاق، ثم يأتي على ذكر ما قمنا به من جهود لاتخاذ قرار بوقف إطلاق النار.

ثم ولدهشتي الكبرى كان يدعوني لزيارة بلاده، وأنهم على استعداد لمناقشة جميع المواضيع والاقتراحات في إطار مبدأين اثنين هما: عدم تنازل مصر عن شبر أرض، وعدم التنازل عن درهم من كرامتها وسيادتها.

كانت تلك رسالة رجل دولة؛ لأنه ما من شك في أن إسماعيل كان يتحدث باسم السادات.

إن السـادات كان على علم بأننا نعمـل كل شيء لإفشال مخططاته العسكرية، وكان باستطاعته أن يتخذ الجسر الجوي الذي نقيمه ذريعة يبرر بها الهزيمة التي وصل إليها هجومه في سيناء. أضف إلى ذلك إمكانية تأليبه ضدنا كافة جماهير العالم العربي، مثلما فعل قبله عبد الناصر عام **١٩٦٧** ولأسباب أقل أهمية. غير أن إراقة الدماء ولأسباب تافهة قد أتعبت السادات، وأخذت الرغبة تحدو به إلى التخلي عن المواقف المسرحية، مستعيضًا عنها بإنجازات واقعية، وخلافًا لعبد الناصر لم يكن يرى أية فائدة في أن يكون زعيم العرب المتشددين، وكان يقدر بحذق مدى المساعدة التي يستطيع السوفييت إسداءها إليه، في سبيل الإبقاء على التوتر في أعلى درجاته، وليس بغية الوصول إلى تسوية.

لا يمكن اعتبار السادات رجلاً عاطفيًا، فهو ماهر في الدفاع عن مصالح بلاده، وعلى الرغم من تحفظه العلني ومرونته، كان حريصًا في إعلامنا أن لديه عدة خيارات، ولا مجال للشك أنه كان صاحب الرأي في حظر البترول، الذي سنشعر قريبًا بثقل وطأته.

ومن خلال طرقه المعقدة، وهو الذي عرف استغلال إحداها بأن أخذ بإبعاد السوفييت عن بلاده، وهم الذين يساندون ويجهزون جيشه، وهو الذي تقدم منا بشكل خفي، في حين كنا نحاول نسف جميع أهدافه وبأقصر مدة ممكنة، وفيما كانت الحرب في أشد أوزارها، أخذ يسير في طريق السلام.

وصلتني مذكرة من السعودية ردًّا على مذكرة كنت قد أرسلتها لهم، فقد أعلمنا الأمير فهد رئيس الوزراء المفوض، أن الوضع أخذ بالتدهور، وأن أصدقاء أمريكا على رأيه أصبحوا في حرج لا يأملون له حلاً. فإذا انتصر العرب، لا مشاحة في أن يسلم الشرق الأوسط إلى الاتحاد السوفيتي، وإذا خسروا، يجب الاعتماد -أيضًا- على الاتحاد السوفيتي، لينشئ من جديد الجيوش العربية، ولا بد من دعوة مستشارين سوفيت للعودة إلى مصر، ويصبح عسيرًا على عربي المجاهرة بصداقة الأمريكان.

لم يكن تحليل فهد ليسؤونا، وكنا على اتفاق معه فيما يراه بالنسبة له ولنا، ولكن حكمنا على النتائج كان مختلفًا تمامًا عن حكمه. إن خطر رؤية الروس ينشؤون الجيوش العربي من جديد بعد هزيمتها، يبدو لنا صغيرًا لدى مقارنته بانتصارها بفضل أسلحة سوفيتية.

إن السلام الذي ننشده ونسعى إلى الوصول إليه، لا نخاله يغير شيئًا من موقف السوفييت، وللحقيقة فإن استراتيجيتنا بكاملها تهدف إلى غير ذلك، ولا بد من التنويه أن كل المذكرات التي تردنا من مصر تشعر بأن مصر تتمنى التحرر من الوصاية السوفيتية، ونحدد بدورنا عزمنا على استغلال هذه النافذة.

كانت بادرة سوء الطالع هي تلك التي وصلتنا من معاون الوزير السعودي للشؤون الخارجية إبراهيم مسعود، الذي استدعى سفراء دول المجموعة الأوروبية؛ ليحذرهم من أن العربية السعودية سوف تقلص إنتاج بترولها إذا لم

يضغطوا على الولايات المتحدة حول تغيير سياستها.

كنا على علم مسبق أن وزير النفط الشيخ أحمد زكي اليماني في طريقه إلى الكويت للالتقاء بزملائه العرب. ودعي إلى هذا الاجتماع قبل البدء في تسيير جسرنا الجوي. ولم أكن أعلم أن السعودية صرحت أنها ليست على استعداد لمجابهة المتشددين العرب، وهذا بالنسبة لها أفضل من تدبير شؤونها معنا، ورأت المملكة أن دوام أمنها واستقرارها لا يكتملان إلا إذا جعلت من نفسها المنفذ لما يتخذه غيرها من قرارات، على الرغم من ذلك لم يكن لنا خيار سوى البقاء في الطريق الذي نسير فيه، فليس لدينا خيار آخر. وكل تردد يزيد في أمد الحرب، ويعرض العالم لخطر أكبر.

إن موقف السعودية في المستقبل القريب يتوقف على حسن تدبيرنا لمشروع سلام ما بعد الحرب، ولا ننسى أن مصر هو محوره، ومن مصر يجب أن تنطلق مخاوف السعودية، من حيث إعادة السوفيت إلى الشرق الأوسط، وعما إذا كانت مقررة؟

وهذه الاعتبارات جميعًا دعتنا إلى سرعة إرسال جواب مذكرة إسماعيل حافظ، وأكدنا فيها على ضرورة استمرار الاتصالات بيننا.

بتقديري لو أن الأمور سائرة نحو الحال فلا بد من استدراج مصر لتفهم ما هو ممكن تنفيذه، كما يجب علينا أن نعطي السادات ذريعة تمكنه من التخلي عن شروطه المستحيلة.

وردتنا معلومات أن وحدة صغيرة مؤلفة من **٢٥** مصفحة إسرائيلية، قد اجتازت قناة السويس في منطقة البحيرة المرة الكبرى، وأخذت بتدمير بطاريات الصواريخ أرض جو المقامة على الشاطئ منها، إن عواقب مثل هذا العمل تدل ولا شك على غلبة إسرائيل؛ لأن القوات المصرية الموجودة على الجانب

الآخر من القناة ستكون عرضة لغارات عنيفة من قبل الطيران الإسرائيلي، ومن السابق لأوانه معرفة قدرة إسرائيل في البقاء على الشاطئ الغربي.

كلمت نيكسون وقلت له: إن الاحتمالات بمعدل اثنين مقابل واحد، باتجاه جعل نهاية الحرب قريبة، وتأكدنا من قرب الوصول إلى وقف إطلاق النار في الثالث عشر من شهر تشرين الأول. وأصبحنا قادرين على تحديد الحلول؛ لأن الأمور لم تبق مرتبطة بالآخرين. والتزامنا الثابت بإرسال العتاد يمكن أن يحسن الحال يومًا بعد يوم، ويقوي احتمالات استراتيجيتنا.

الأربعاء **١٧** تشرين الأول **١٩٧٣**

تواصل معـنا السوفيت وذكـروا بتحذيراتهم السابقة حول خطر انفجار يحدث في هذه المنطقة من العالم. وكرروا كعادتهم أنه في حالة عودة إسرائيل إلى حدود ما قبل **١٩٦٧** فإن أمنها سيكون مضمونًا من قبل القوتين الأعظمين، أو مجلس الأمن الدولي.

أصبحـنا في وضع مُرضٍ، ولا حـاجة لنا بعد لاستخدام نفوذ ما في سبيل حل عسكري، ونحن قادرون على إرسال صفقات عتاد إلى إسرائيل، أكثر مما يتمكن الروس إرساله إلى العرب، وكان لدى أصدقائنا استعداد أكبر لاستخدام العتاد الذي نرسله إليهم.

وصل إلى واشنطن وفد مكون من وزراء الشؤون الخارجية في السعودية، والمغرب، والجزائر، والكويت، للدفاع عن القضية العربية. وبينت لهم أن هدف أمريكا الرئيسي هو وضع حد للمعارك الدائرة، وسنتعاون بعد ذلك في بذل جهود دبلوماسية لإيجاد وسيلة لإحلال سلام عادل ودائم.

أوجز وزير المملكة العربية السعـودية، عمر السقاف، الرجـل العاقل

اللطيف، موقف البلاد العربية وبلهجة معتدلة: ليست إسرائيل مهددة بالفناء من قبل العرب.

ولم يخش الــوزير السعودي التأكيد أن لــهذه البلاد الحق في الوجود، لكن في حدودها ما قبل حرب **١٩٦٧**، "إننا لا نطالب بشيء سوى عودتها إلى حدود ما قبل حرب **١٩٦٧**، واحترام حقوق اللاجئين في العودة إلى أراضيهم، وتعويضهم ما فقدوه، وهذا يكون كافيًا لضمان واستقرار وأمن إسرائيل".

لاحظت أن الحالة النفسية لوزراء الخارجية العرب تظهر لي وبكل تأكيد أنه لن يكون هناك حظر على البترول في الوقت الحاضر.

ولقد أخطأ تصوري قليلاً، فقد وردتنا أخبار مزعجة أن منتجي البترول العربي المجتمعون في الكويت أعلنوا منذ قليل تقليص الإنتاج بنسبة **٥%** من إنتاجهم العام، على أن يتبع هذا التقليص تقليص شهري آخر، طالما أن إسرائيل لم تعد إلى حدودها ما قبل **١٩٦٧**، كما كانت هناك مبادرة من قبل البلدان الستة في الخليج الفارسي أعضاء منظمة أوبك، الذين قرروا من جانب واحد زيادة سعر النفط بمقدار **٧٠%** أي أن سعر البرميل ينتقل من ثلاثة دولارات وواحد بالمائة إلى خمسة دولارات واثنا عشر بالمائة للبرميل الواحد، وكنا جد متخوفين من خطر حظر تصدير البترول أكثر من هذا التقليص على الإنتاج، الذي قدرته وكالة المخابرات المركزية بمليون برميل يوميًّا.

وكان لهذا الإجراء نتيجة سريعة ومباشرة، وسرعان ما تحول قلق الأوروبيين إلى تخل عن أمريكا، وهلع داخلي، وكان هم أوروبا الوحيد كسب رضا منتجي البترول.

في غضون ذلك كنا نسارع من سير جسرنا الجوي، ونحرص على إجراء اتصالات مع الأطراف ذات العلاقة، وندعو في الوقت ذاته إلى وقف إطلاق نار

يرتكز على قرار مجلس الأمن رقم (**٢٤٢**).

الخميس والجمعة **١٩/١٨** تشرين الأول **١٩٧٣**

أعلنت إسرائيل أنها تعزز رأس الجسر الذي اخترقت به قناة السويس من الطرف الآخر. ووصلتنا رسالة من الملك فيصل تحذر من أن إطالة الحرب هي إحدى محاولات السوفييت، وأن الحرب لن تنتهي ما لم تعد إسرائيل إلى حدود ما قبل **١٩٦٧**، وختم رسالته بالتحذير الغامض: "إذا بقيت الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل، فإن الصداقة الأمريكية - السعودية لا بد من أن تتناقص يومًا". لكن هذا الموقف الحكيم أتبعه بقرار قاس، وأعلن عن مضاعفة السعودية تقليص إنتاجها النفطي إلى **١٠%**، وتعهدت بعمل ذلك كل شهر، ويهددون في الوقت ذاته بتعليق تجهيز الولايات المتحدة بالبترول، في حالة أن هذه الإجراءات لا تؤدي إلى نتائج سريعة ومقبولة.

فجأة أصبحت غولدا مائير تمانع الآن أي إجراء يهدف إلى وقف إطلاق النار، بعد أن كانت تطالب به من قبل أسبوع، وهي ترفض كل ما له علاقة بقرار مجلس الأمن الدولي (**٢٤٢**) الذي كان يعتبر كلامًا مقدسًا بالنسبة لإسرائيل طوال ست سنوات من المفاوضات.

لقد رأينا إسرائيل وهي تعاني خطر الموت طيلة الأسبوعين الأخيرين، وجمدنا كافة الإجراءات الممكن اتخاذها في الأمم المتحدة، عندما كانت استراتيجيتنا المشتركة تقتضي ذلك، ومن ثم اقترحنا وقف إطلاق النار عندما أصبحت إسرائيل على أتم الاستعداد، وأرسلنا مواد حربية بوفرة وغزارة عندما كانت إسرائيل تقترب من نهايتها.

أما الآن فلسنا على استعداد لتدمير علاقاتنا مع أوروبا واليابان، ونتحمل خطر حظر بترولي، متجاوزين الأعراف الدولية، وغير عابئين بإرادة السوفيت، وإثارة آخر أصدقاء لنا من

العرب. أبلغت الإسرائيليين أن قرار وقف إطلاق النار لا بد من اتخاذه قريبًا، وعليهم تسريع عملياتهم العسكرية ليقدروا على إنهائها خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة.

وصلتنا مذكرة من السوفيت تتضمن ثلاث نقاط لعرضها على مجلس الأمن وهي:

- توجيه نداء بوقف إطلاق نار مكاني.

- توجيه نداء داخلي لانسحاب عاجل ومبرمج، ينفذه الإسرائيليون فيخلون جميع الأراضي العربية المحتلة، إلى خط يتوافق مع قرار مجلس الأمن (٢٤٢)، ويجب أن يتم هذا الانسحاب في أقصر مدة ممكنة.

- توجيه نداء حول البدء بمشاورات مناسبة، تؤدي إلى إحلال سلام عادل.

إن الفريق الذي كنا نرى أنه لا بد محتاج لإبقاء علاقاته معنا سليمة، هذا الفريق هو نصف خصمنا وموجود في القاهرة، وعلى اعتقادنا أنه لا بد الآن في مرارة من الحياة. والجيش المصري سيعرض الآن لمصاعب خطيرة، ومصلحتنا لا تدعونا إلى القبول بهزيمة مصر. ونحن أردنا في الوقت نفسه منع الانتصار عن طريق الأسلحة السوفيتية، ولا نقبل أبدًا بإسقاط السادات، ولا تدمير مصر، ولا وقوعها تحت سيطرة متشددين نتيجة هزيمة شاملة.

أرسلت مذكرة مشجعة للسادات عن طرق إسماعيل، وكنت أعيد فيها ما عرضناه قبل يومين، أي: وقف إطلاق النار، وأضفت أهمية خاصة مبينًا أن مصر وحلفاءنا العرب أدخلوا تحسينات هامة على الوضع، نتيجة ما أظهروا من قدرة وكفاءة في ميادين القتال، وعلينا الآن عدم التخلي عن هذه المكاسب بإطالتنا أمد الحرب، وأنهيت المذكرة بمناشدته القبول بوقف إطلاق النار، متى سمح الوضع العسكري بذلك.

في ذلك الوقت تلقيت طلبًا من السوفيت للسفر إلى الاتحاد السوفيتي لبدء محادثات حول إنهاء الصراع

الفصل الثالث عشر

السفر إلى موسكو

سـافرت إلى الاتحـاد السوفيتي مع معـاوني، ورافقنـي -أيضًا- سفير الاتحاد السوفيتي أناتولي دوبرينين، وبعد المفاوضات تم الاتفاق على قرار وقف إطلاق النار.

أوحت إلي جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل خلال اتصال هاتفي أن أتوقف في إسرائيل في رحلة عودتي، وخطر لي أنها مناسبة لائقة أتمكن فيها من توضيح الأمور، كما شعرت أنها بحاجة لدعم موقفها؛ لتتمكن من مواجهة مرحلة ما بعد الحرب والمحافظة على نفوذها في حكومتها.

وصلنا تل أبيب. إن من جاء لاستقبالنا كان يشعر في أعماق كيانه، هول الكارثة التي خرج منها للتو، والإضناء الذي ألم بهم خلال أسبوعي الحرب الفائتين. وكانت فئات قليلة من الجنود ومدنيين يهللون ويصفقون وعيونهم مغرورقة بالدموع، ويرتسم على وجوههم الضنى، الذي يشعر بقدرة احتمال وحدود المعاناة الإنسانية، إن إسرائيل كانت منهكة، مهما تكن انتصاراتها العسكرية، وشعبها متطلع ومتشوق للسلام كهؤلاء الذين لم يذوقوا له طعمًا.

في لقاء منفرد مع جولدا سألتني عن المستقبل، لا عن الحرب الدائرة، فقالت: هل هناك محاولة سرية أمريكية لإعادة إسرائيل إلى حدود ما قبل **١٩٦٧**؟ فأنكرت ذلك بعنف، ثم سألتني عما إذا كانت هناك محاولة أخرى لفرض حدود جديدة. فنفيت ذلك -أيضًا. وفيما كانت تحاول استطلاع جميع خفايا السياسة الأمريكية، أوضحت لي بصورة لا تقبل الشك ما كانت تعانيه إسرائيل من الناحيتين الجغرافية والسكانية، ومدى ارتباطها بالولايات المتحدة.

لقد جهدت الدبلوماسية الإسرائيلية طوال خمسة وعشرين عامًا للوصول إلى مفاوضات مباشرة وقد أصبحت الآن منها قاب قوسين أو أدنى.

إن مخاوف إسرائيل كانت كـبيرة جدًّا، حتى إن الحــديث عنها كان بمثابة وقع السهام، وجولدا كانت تعرف أنها ولو توصلت إلى أهداف طالما رغبتها فإنها لا تتكافأ وتعديل الوضع النفسي في إسرائيل، وعندما سألتها عن السادات وإمكانية بقائه بعد وضع الحرب أوزارها، أجابت بهدوء: ولم لا؟ فإنه بطل وجريء.

وكانت على حق لأن إسرائيل كانت في وضع مخز، وعلى الرغم من أن الحرب انتهت لصالحها، فإن مستقبلها يفوق إمكاناتها البشرية، والتغلب على أعدائها لا يمكنها من السيطرة، وللتمكن من ذلك يجب سحقهم حتى لا يستطيعون البقاء، وأنى لها ذلك ما دامت مدينة القاهرة وحدها تعد ضعفي إسرائيل، والتاريخ لا يروي أن شعبًا مهما كان قويًّا استطاع تحمل مثل هذه المسؤولية.

ولذا فإن السلام ضروري بالنسبة لإسرائيل بقدر ما هو مرعب.

وصلتني برقية تنبئ أن مصر قبلت بوقف إطلاق النار، وكان رد الفعل الإسرائيلي الذي رأيته على وجوه المجتمعين يدل على غبطة وانفراج متعقل متباينًا بين الأمل والحذر.

غادرت إسرائيل مسرورًا، وكان سروري ممزوجًا ببعض القلق، لقد توصلنا إلى تحقيق هدفنا الاستراتيجي، لكن هذا الهدف فتح أمامنا بابًا نحو المجهول.

بعد عودتي وصلتني أنباء عن خرق وقف إطلاق النار واحتلت إسرائيل مواقع جديدة، علمت من خلال مذكرة سفيرنا في إسرائيل أن جولدا بينت له أن قرار وقف إطلاق النار يجد معارضة قوية في البلاد، وأنها تسعى للحصول

على موافقة البرلمان بكثير من الوعود والحوارات. ثم قام المصريون بخرق إطلاق النار وقاموا بهجوم عنيف. ورد الإسرائيليون بهجوم عنيف استطاع حصار الجيش الثالث المصري وقطع آخر خطوط تموينه.

وصلت مذكرة عاجلة من السادات موجهة إلى نيكسون مباشرة، عن طريق أجهزة الاستخبارات، وهذه هي المرة الأولى التي يكشف فيها النقاب عن اسم الرئيس في المذكرات المرسلة، مما يدل أن هناك شيئًا بالغ الخطورة.

ورد في المذكرة: ليس للولايات المتحدة علاقات دبلوماسية مع مصر منذ ستة أعوام، ومع ذلك فهي مدعوة لتدخل فعلي، واستخدام القوة إذا اقتضى الحال؛ لضمان التطبيق التام لقرار وقف إطلاق النار.

تم تثبيت قرار وقف إطلاق النار، ووافقت مصر وإسرائيل فعليًّا على تنفيذه، بالإضافة إلى أن سوريا أعلنت قبولها لوقف إطلاق النار.

حدث خرق ثـان لوقف إطلاق النـار، فاقترحت إرسال مراقبين من الأمم المتحدة لمراقبة الوضع، ووصلتني مذكرة من مصر بالموافقة.

كنا نمانع وبشدة من إرسال قوات سوفيتية لمراقبة الوضع حتى لو كنا نشارك نحن -أيضًا، لذا أصررنا على إرسال مراقبين من الأمم المتحدة.

اتخذ مجلس الأمن قراره رقم **٣٤٠** وجدد فيه مطالبه بالعودة إلى وقف إطلاق النار، ويدعو إلى تشكيل قوة دولية، تتضمن أعضاء من الأمم المتحدة باستثناء القوتين الأعظمين.

لكن إسرائيل رفضت فك الحصار عن الجيش المصري الثالث، كانت ترغب في استسلامه من أجل إعلان هزيمة السادات، واصلت جهودي من أجل إقناع

إسرائيل على مد يد العون وبطيبة للجيش المصري الثالث؛ لتجنب نفسها معارضتنا الأكيدة، وتواصلت المذكرات من السادات لنيكسون يعترض فيها على ما يحدث ويطالبنا بالتدخل.

أبلغت الإسرائيليين أن سلوكهم انتحاري، وأننا لن نسمح بتدمير الجيش الثالث، فتدميره يعني تدمير إمكانية إجراء مفاوضات.

أعلمني حافظ إسماعيل أن بلاده قبلت بإجراء محادثات مباشرة بين ضباط مصريين وإسرائيليين، على أن يكون جميعهم من رتبة عميد لمناقشة الشؤون العسكرية حول تطبيق القرارين **٣٣٨** و **٣٣٩**.

بفضل وساطتنا ستدخل إسرائيل بأول محادثات مباشرة مع ممثلين عرب منذ تكوين دولتها، وكانت لا تزال تسيطر على مخرج الجيش الثالث. قبلت إسرائيل إجراء المحادثات، وتم اللقاء بإشراف الأمم المتحدة.

لقد بـــدأ التحول، وفتح باب المفاوضات على مصراعيه ولن يطول أمد التوجه نحونا لوضع حد لكل هذه الأمور.

لقد وصلنا في استراتيجيتنا إلى ما كنا نهدف إليه. فإن الحرب قد وضعت أوزارها، ومع انتهاء الحرب انتهت جميع المصاعب التي كانت تقف عائقًا في وجه السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. وأصبحنا نشكل العامل الرئيس في تحريك الدبلوماسية، وأخذت مصر تتحرك في اتجاهنا -أيضًا، وليس هذا وفقط، بل بدأت في دعوة النظم المتشددة نفسها لإعادة النظر في أسس علاقاتها الدولية.



هدية العدد ٣٣ من مجلة كَلِمَةُ حَقّ ، أبريل ٢٠٢٠